

عتاب إلهي بليغ



«يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَتَنَزَّلُوا مِنْهُ زَفَسٌ مَّا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَآتَقُوا اللَّهَ إِنِّي أَخْبِيرُكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ) (الحشر/ 18).

إنَّ هذه الآيات من أبلغ الآيات المُشيرة إلى مسألة مراقبة النفس. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...) ليست التقوى إلا الكفَّ عمَّا لا يُرضي الله عزَّ وجلَّ: عملاً بالواجب، وإنهاءً عن المحرِّم.

(وَلَا تَتَنَزَّلُوا مِنْهُ زَفَسٌ مَّا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ...) إنَّ الأمر بالتقوى خطاب للمسلمين وللمؤمنين؛ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...)؛ ولكن عندما يصل الأمر إلى المحاسبة، فإننا نلاحظ التغيير في لحن الآية: (وَلَا تَتَنَزَّلُوا مِنْهُ زَفَسٌ مَّا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ...)، ففي صدر الآية هناك خطاب وهو: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)؛ ولكن (وَلَا تَتَنَزَّلُوا...) فإنَّه كلام مع الغائب، وليس هناك مواجهة في الخطاب.. يقول البعض - ونرعم ما يقول - بأنَّ هذه الآية لا تخلو من عتاب، ومن تقريع مُبطَّن.. وكأنَّ الله عزَّ وجلَّ يُريد أن يقول: أُخاطب مَنْ؟! .. فالأمر بالتقوى يمكن أن أُخاطب به المؤمنيد؛ لكن مراقبة النفس أمرٌ صعب..

(وَلَا تَتَنَزَّلُوا مِنْهُ زَفَسٌ) فيه تنكير، وكأنَّ هذه النفوس التي تنظر إلى ما قدَّمتم لغد، نفوس في غاية القلَّة وفي غاية الندرة..

(وَآتَقُوا اللَّهَ...) فمن دون الاهتمام البليغ بمحاسبة النفس ومراقبتها، كأنَّ هذه التقوى لا تتم..

ثمَّ تقول الآية: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْزَفَسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)، إنَّ نسيان الله - عزَّ وجلَّ - قد يجتمع مع الطاعة.. فإنَّ الإنسان قد يعمل في

شركة لسنوات طويلة، ويؤدّي واجبه اليومي.. وينسى صاحب العمل.. فهو يعمل بشكل تلقائي؛ ولكن لا يذكر صاحب الأمر.. وهكذا فإنّ بعض الناس قد يطيع ربّ العالمين؛ ولكنه لا يعيش حالة الذّكر الدائم. فإذن، إنّ نسيان الله - عزّ وجلّ - يكون تارة بعدم الاعتراف به والتحدّي، وهو الكفر.. وتارة يكون نسيان صاحب العمل في مقام العمل.

(أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) إنّ هذه الآية لا تقول: أولئك هم الخاسرون.. فالذي نسي الله - عزّ وجلّ - في عرفنا أنه إنسان غافل؛ ولكنّ القرآن الكريم يقول: (أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) فنسيان الله - عزّ وجلّ - إمّا هو فسقٌ خفي، أو مقدّمة لفسقٍ جليّ.

(لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...) إنّ هذه الآية فيها أيضاً عتابٌ مُّبِينٌ.. إنها تقول: يا بني آدم! لقد أنزلنا عليك القرآن الكريم، وأمرناك بتلاوته، وجعلناك أهلاً لتحمل معانيه.

ولكننا كيف نتفاعل مع القرآن الكريم، إنّ بعضاً منّا لا يعيش أدنى درجات الخشوع مع كتاب يتصدّع الجبل له. ثمّ يبدأ بختم بسورة الحشر بآيات ربوبية: (هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْتَمِنُ الْمُتَعَزِّزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنسَانَ الْأَبْرَأَ الْأَبْرَأَ الَّذِي لَمْ يَلِدْهُ الْأُنثَىٰ مِن دُونِ ذَكَرٍ إِنَّهُ لَمَنْ قَدَّمْتَهُ لِيَعْدِي...؟ لماذا؟ لأنك ستُلاقِي هكذا رب، أي بما أنّي مادمت أرجع لربّ بهذا الجلال فهو أهل لأن يُراقب، وأهل لأن يُذكر.. فكأن ختم هذه الآيات تشجيع للعبد على أن يلتزم بالمراقبة الدقيقة المستوعبة لكل لحظة من لحظات الحياة.

إنّ التدبّر في القرآن الكريم، هو مفتاح التكامل.. وهذه الآيات مفتاح الفلاح، لأنها تؤكّد على عنصر جوهرى، وهو مسألة المراقبة، والمراقبة متوقفة على معرفة المراقب.. فإذن، علينا التدبّر في هذه الآيات، واتخاذها ورداً في كلّ يوم.. لتكون عنصر ردعٍ وتذكير للمؤمن، كلاً ما أراد أن ينسى ربّه جلّ وعلا. ▶